أثر المكوّن الأنثروبولوجي – الثقافي في تفكيك سؤال الإرهاب.
قراءة في رواية عزالدين ميهوبي "إرهابيس "[1]

(القسم الأول)

الأستاذ الدكتور: بشير إبرير
جامعة باجي مختار– عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها

ملخص:

تعد رواية "إرهابيس" لعزالدين ميهوبي، رواية أطروحة، تبحث في إشكالية كبرى مطروحة على الثقافة بل الحضارة المعاصرة في العالم كله، من نواحي عديدة: دينية وسياسية وتاريخية واجتماعية وإعلامية. وبعبارة أخرى تبحث في فلسفة الإرهاب في قالب روائي؛ لأن الرواية هي الجنس الأدبي الذي يتسع أكثر من غيره لمعالجة القضايا الإشكالية كهذه.

ولذلك رأيت أن أهم مدخل إليها هو: المدخل الأنتروبولوجي - الثقافي - الذي يمكن توظيفه في قراءتها من خلال العناصر الآتية :

- البحث في العنوان ودلالاته المتنوعة.
- البحث في تفاعل الخطابات: السياسي والإعلامي والديني والأدبي في الرواية.

[1]) ننبه القارئ الكريم إلى أن هيئة التحرير قسّمت هذه الدراسة إلى قسمين اضطراراً ، تماشيا مع ضوابط المجلّة القاضية باحترام حجم المقال بحسب ما تمّ النّصّ عليه في قواعد وشروط النشر. وتجدون في العدد القادم القسم الثاني من هذه الدراسة .

- البحث في دلالات الأسماء وعلاقتها بالإشكالية العامة.
- البحث في رهبة المقام وبلاغة الوصف، وقضايا أخرى.

L'impact de la Composante anthropologique et culturelle dans la dissociation du question de terrorisme : une lecture dans le roman : " IRHABIS"

Résumé :

Le Roman "IRHABIS" est considéré comme un roman thèse puisqu'il traite une grande problématique culturelle voire civilisationnelle contemporaine à travers le monde entier dans des nombreux domaine comme : la religion, la politique, l'histoire, la société et l'information. En d'autres termes, il examine une question de philosophie de térrorisme dans un cadre romantique, puisque l'écriture romanesque est un genre littéraire qui s'élargit à traiter plus que d'autres les problématiques comme celles-ci.

C'est pourquoi j'ai vu que l'approche importante est Anthropologique et culturelle qui peut être employée dans sa lecture à travers les éléments suivants :

- Le titre et ses significations diverses.
- L'interaction des discours : politique, information, religion, littérature dans le roman.
- Les significations des noms et leurs relations avec la problématique générale.

- La crainte respectueuse de la situation et l'éloquence de la description et d'autres problèmes.

Impact of the Anthropologic and Cultural Component in Dissociating the Question of Terrorism A reading from the novel "Irhabis" by Azzedine MIHOUBI

« IRHABIS » is a thesis novel that deals with world's great cultural and civilizational issues in different fields such as religion, politics, history, sociology and information. In other words, it deals with the question of terror's philosophy in a framework of novel writing; a literature genre that aims to treat such an issue more than other.

For this, the main approach is anthropologic and cultural, and can be used in its reading throughout the following research axes:

- The title and different significations.
- Interaction of the discourses: political, information, religion and literature in the novel.
- Significations of the words and their relation with the main issue.
- The respectful fear from the situation, eloquence of the description and some other issues.

1- مقدمة:

من يقرأ "إرهابيس" لعزالدين ميهوبي يجدها تعالج إشكالية محددة هي المتمثلة في **إشكالية الإرهاب**، وتحاول تفكيك أسئلتها الشائكة بتقليبها على جميع أوجهها، ومحاولة الإجابة عنها، بالبحث في جذورها القصية، وخلفياتها المتنوعة، ومرجعياتها المتعددة، وبعبارة أخرى البحث في **فلسفة الإرهاب في قالب روائي إبداعي**، لأن الرواية هي الجنس الأدبي الذي يتسع أكثر من غيره لمعالجة القضايا الإشكالية التي منها: إشكالية الإرهاب.

أسمح لنفسي أن أصف "**رواية إرهابيس**" **بأنها الرواية الأطروحة** لأنها تبحث فعلا في إشكالية كبرى مطروحة على الثقافة بل الحضارة المعاصرة في العالم كله، من نواحي عديدة: دينية وسياسية وتاريخية واجتماعية وإعلامية ...الخ. ولذلك رأيت أن بإمكان القارئ أن يدخلها من أبواب ومداخل عديدة هي أيضا، ولعل أهم مدخل إليها هو: **المدخل الأنثروبولوجي- الثقافي**، الذي يمكن توظيفه في قراءة هذه الرواية التي حاولت معالجة إشكالية الإرهاب ومفاهيمه المتنوعة، والغوص في أعماقه والتعرف على خفاياه وأسراره، وكيف يتجلى في الخطابات المتنوعة.

سأتناول في هذه الدراسة العناصر الآتية:

1- مقدمة.

2- العنوان.

3- تفاعل الخطابات في إرهابيس.

3-1- مكتبة إرهابستان.

3-2- رهبة المقام.

3-3- لعبة الأسماء.

4- بلاغة الوصف.

5- الشعر والغناء.

6- مؤتمر إرهابيس.

7- المراجع.

مع الملاحظة أنني سأقدم كثيرا من النصوص التي تضمنتها الرواية وأحاول الاشتغال عليها، هادفاً إلى تمكين القارئ من تكوين صورة واضحة عن الرواية، وتقريبها إليه وكأنه قرأها، دون الإكثار من الجوانب النظرية التي قد تجعلنا نبتعد عن النص ولو قليلا.

2- **العنوان:**

وضع الكاتب عنوان روايته هكذا: "**إرهابيس**" هذا العنوان العجيب الذي يشكل فضاءه، بل فضاءاته الخاصة التي ترصد ممارسة الإرهاب، إنه كما يقول الدكتور الطيب بودربالة: مفتاح سحري لولوج عالم النص، وقديما قيل: **الكتاب يُقرأ من عنوانه**. وقد كشف النقد المعاصر منذ ثلاثة عقود، عن حقل نقدي استراتيجي جديد يتصل اتصالا وثيقا بعلوم النص، **وهو علم العنونة** Titrologie كما يحلو للفرنسيين تسميته[1]. وهو ككلمة مفتاح أولى في عالم الرواية، يشكل استراتيجية من استراتيجيات **القراءة الأدبية**، التي تختلف عن **القراءة العلمية** التي تنطلق من عناوين ذات بصمات مختلفة؛ إذ أن دالها يتطابق مع مدلولها غالبًا، وهي بذلك تحقق صرامتها العلمية المطلوبة في الخطاب العلمي.

ولكنّ العناوين في القراءة الأدبية لها طابعها الخاص، ومميزاتها اللغوية والأسلوبية؛ ومنها أنّ دالها لا يطابق مدلولها، وهي بذلك تحقق شعريتها الكامنة في طاقتها المجازية والإيحائية.

إن العنوان في الأعمال السردية؛ رواية وقصة.. يعد بمنزلة الرأس من الجسد، خلافًا للنّص الشعري وبخاصة القديم منه، الذي يمكن أن ينوب المطلع فيه عن العنوان. وبما أن العنوان استراتيجية نصية فإن كاتبه يظل يعتني به ليحقق فيه الدلالة على مقاصده وأغراضه التي يؤمها، فهو من الناحية اللغوية: "نسق منغلق على نفسه، ومتحقق بذاته، ونسق منفتح على النص وعلى اللانص. إنه نص مكثف ومختزل ومختصر، إنه نظام دلالي رامز له بنيته الدلالية السطحية والعميقة مثل النص تماما"[2].

إن النص الذي لا عنوان له يعد عرضة لأن يذوب في غيره؛ لأن يضيع؛ لأن يحرّف عن مقصوده، بالإضافة إليه أو بالحذف منه؛ مما يعني أن العنوان هو الذي يحقق هوية النص في عالم النصوص المتعددة، ويجدّرِهُ في عالم الثقافة بتسميته، **والتسمية هوية وتميز.**

ولهذا نرى كثيرا من الكتاب والمبدعين يعتنون بوضع عناوين نصوصهم بدقة؛ بحيث تحقق نوعًا من الجذب للقارئ، لكي يتلقى النص ويتواصل معه، "فالعنوان ظاهرة تواصلية تداولية تقتضي التفاعل والمشاركة بين الكاتب والمتلقي"[3].

يعد العنوان اللافتة الإشهارية الأولى للنص، يعمل على إغواء القارئ واستدراجه شيئًا فشيئًا للدخول إلى عالم النص بتصويره كأنه **ماركة مسجلة** في سوق السلع النفيسة، ومنها سوق الكتاب، وهنا سوق الرواية. أعتقد أن الروائي بوصفه لهذا العنوان "إرهابيس" يكون قد حقق فيه وظائف

متعددة، وضمنه عناصر مهمة من حيث الشكل والمحتوى، تحث القارئ وتغويه ليدخل عالم الرواية ويتواصل معها بفاعلية، ويكشف المستور.

ومن بين أهم الوظائف المتحققة في هذا العنوان، **الوظيفة الإشهارية** التي من شأنها – برأيي الخاص– أن تساعد على **تسويق الرواية وتحقيق مبيعاتها؛** فعنوانها قد كسر السائد وخرج عن المألوف من العناوين الكثيرة التي قرأناها.

إنّ العنوان "إرهابيس" هنا يتعدى كونه **بنية لغوية خالصة** منغلقة على نفسها تتألف من دال ومدلول برأي دوسوسير، إلى كونه **علامة سيميائية** تتألف من دال ومدلول ومرجع برأي شارل ساندرس بيرس. فالمرجع Le Réferent عنصر مهم في انفتاح الرواية على العوالم غير اللغوية المؤثرة فيها، وبخاصة من الناحية الأنثروبولوجية والثقافية. أعتقد أن الأسئلة المحرقة التي تطرحها هذه الرواية، تبدأ الإجابة عنها من هنا؛ **من المكوّن الأنثروبولوجي– الثقافي** الذي يدرس نسب الإنسان ونسله وفنونه وعاداته وتقاليده، والأعمال التي قام بها، وممارسته المختلفة، ثم إنه أسلوب دراسة ومصدر أدلة لمجال فسيح يضم طرائق الحياة البشرية الحديثة والقديمة. وقد اغتنى **مفهوم الأنثروبولوجيا** بمفاهيم أخرى منها: **علم الاجتماع** الذي نتج عنه مفهوم **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** في أنجلترا، ومفهوم الثقافة الذي نتج عنه مفهوم **الأنثروبولوجيا الثقافية** في أمريكا. ونلفت النظر كذلك إلى العلاقة الوطيدة بين **الحضارة والثقافة**[4] **في هذا الإطار.**

وقد حاول الروائي في "إرهابيس" الحفر في الأعماق القصية للتربة الحضارية في محاولته تفكيك سؤال الإرهاب ومعالجته من جوانب عديدة منها:

اللغة التي تعد وسيلة أساسية في شرح حضارتنا وثقافتنا وتبيان **علاقتنا مع الآخر**؛ وبخاصة في موضوع أساسي مثل: موضوع الإرهاب الذي كثيرا ما ألبسوه لبوسًا لغوية خاصة باللغة العربية وبما تحمله من ثقافة. **إنّ الرؤيا للغة هي الرؤيا للعالم.**

وضع الروائي عنوان روايته هكذا: "إرهابيس" ثم كتب في الصفحة الداخلية (IRHABIS (TAN – أرض الإثم والغفران، وكأن هذه اللاحقة لا تجعل من الكلمة عربية أصيلة، وإنما هي كلمة دخيلة على العربية، تشكلت في سياق آخر مخالف لها – وهي هنا – ترتبط بمفهوم شحنته **الثقافة الغربية الحديثة** ومعها الثقافات الأخرى ومنها: **ثقافتنا العربية المعاصرة** المغلوبة على أمرها في معظم الأحيان بشحنات مدروسة وألبسته لبوسًا خاصة، ووجهته لتحقيق أهداف حددتها بدقة من أجل محو مفاهيم أخرى محددة وإبطال مفعولها وإزالتها؛ هذا المفهوم هو **مفهوم الإرهاب** في مقابل **مفهوم المقاومة المشروعة.**

لا يمكن أن نفهم هذا المفهوم ونحلله ونعرف كنهه إلا **من منظور ثقافي حضاري** يبحث في الخصوصيات المميزة " **للأنـــا** " **وللأخر** من الناحية الأنثروبولوجية.

يشير الروائي هنا إلى ماركوس قائد السفينة وهو يشير بيده نحو قوس داروين الصخري العائم في البحر، ويقول للصحفيين: "انظروا، إنها معابد البحر.. معابد لن تجدوها في بلدانكم المتخمة بالحداثة..." هل تعرف

داروين؟ ولا يهمه إن سمع مني جوابًا فيسترسل في القول: كان هذا الإنجليزي يأتي هنا ليتحدث مع السلاحف، ويقرأ تجاويف الصخور، ولما يعود إلى بيته في الجزيرة الهرمة يقول إن الإنسان كان في الأصل سمكة فسلحفاة ثم قردا... ولا أعرف من أين أتى بهذا الكلام الفارغ. هل رأى القردة تقرأ شكسبير والسلاحف تردد أشعار كيبلنغ؟"[5].

لعل الإشكالية تبدأ من حديث داروين صاحب **نظرية النشوء والارتقاء** الذي زعم أنه درس أصل الإنسان وصنفه تصنيفات محددة حسب مراحله التطورية، وحسب عرقه ونسبه، وأصدر أحكاما عن الأجناس البشرية كان لها تأثير في نظرة العالم إلى الإنسان نظرة طبقية، تُعلي من شأن هذا وتحط من شأن ذاك؛ فليس من المعقول أن يكون أصل الإنسان سمكة فسلحفاة فقردا. إنه كلام فارغ كما قال ماركوس. ولا ندري لماذا فكر داروين بهذه الطريقة وهو الذي يُدرج في مصاف العلماء.

إن المسألة تبدأ من هذه النظرة العرقية الاستعلائية التي وظفت العلم بطريقة معوجة. لقد "أحسن أولئك الذين طمسوا اسم داروين من الخريطة، وأطلقوا على الجزيرة اسم إرهابيس تخليدا لأسطورة أتلانتس الغارقة في قاع المحيط، غير أن أهل هذه الجزيرة يسمّونها إرهابيستان"[6]. هكذا قال ماركوس الذي يبدو رجلا قد حنكته التجربة والخبرة في رحلاته المتتابعة إلى جزيرة داروين أو إرهابيس المهجورة، ومع ذلك فهي ترحب بزوارها؛ من ذلك ما قاله أحد القادة العسكريين عندما نزل المسافرون على متن "مونكادا":

"أهلا بكم في إرهابستان أو إن شئتم إرهابيس.. لن تجدوا هنا أضواء لاس فيغاس ولا أبراج دبي، ولن تجدوا مطار فرانكفورت ولا ميترو

موسكو، ولن تجدوا كوبا كبانا ولا مقاهي الشانزيليزيه لكنكم تجدون رجالا يريدون تغيير العالم"[7].

لكن من هم الذين يغيرون العالم؟ هل الإرهابيون هم الذين الذين يغيرون العالم؟ ولكن من هم الإرهابيون؟ وما هو الإرهاب؟ ومن أسسه ونمّاه وطوره؟ ولماذا وكيف سيغير هؤلاء العالم؟.

إنها أسئلة كثيرة ممكنة الطرح، وتحتاج إلى إجابة بالنظر إلى السياقات الثقافية والاجتماعية والحضارية المحيطة بنا.

إنها أسئلة محرقة تتعلق بمفهوم واحد هو: **سؤال الإرهاب** تقتضي محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة جميعًا أو بالتحديد الإجابة عن السؤال الأساسي الذي تفرعت عنه، أن يتم النظر إلى زوايا عديدة والإطلالة من نوافذ متنوعة: كل منها تحاول أن توضح وتبوح بسر مخبوء هنا أو هناك، والاشتغال على أكثر من خطاب.

وهذا ما سنتناوله في ما يلـــي:

3- **تفاعل الخطابات في إرهابيس:**

تعد هذه الرواية مثالا حيا لتفاعل الخطابات وتضافرها وتآزرها وتلاقيها وتحاورها وتناصها، وربما تصادمها أيضا، وقد اخترت استعمال "تفاعلها" لأنني رأيتها أكثر دلالة من الاستعمالات الأخرى.

فالخطاب الأساسي هو خطاب أدبي تجسد في نوع أساسي من أنواع الخطاب الأدبي وهو الخطاب الروائي بما يحمله من خصوصيات شكلية ولغوية وأسلوبية وموضوعية لها علاقة بالمحتوى الحضاري– الثقافي الذي

تعالجه، ومن خصوصيات فنية وجمالية وبلاغية أيضا، تحفظ لها مكانتها في عالم الرواية وعالم الأدب.

وهكذا فإن إرهابيس باعتبارها خطابا أدبيا روائيا سرديا، تنفتح على خطابات أخرى اندمجت معها واحتوتها وحاورتها ووافقتها وتبادلت التأثير معها، وبكلمة أخرى، تفاعلت معها في خطابٍ واحد يحاول أن يفكك سؤال الإرهاب.

ومن بين أهم الخطابات التي كان لها قيمة وأثر واضح في رواية إرهابيس: **الخطاب السياسي**؛ لأن سؤال الإرهاب مضمخ بالسياسة؛ لأن الإرهاب سياسة، وكلاهما صناعة في المخابر الإستراتيجية العالمية، يتم تسويقها والترويج لهما والإشهار لهما؛ بل والتشهير بهما أحيانا أخرى بواسطة خطابٍ آخر صُنّع هو أيضا في المخابر نفسها هو: **الخطاب الإعلامي**، هذا الخطاب المهم المؤثر في غيره من الخطابات والمتأثر بها في الوقت نفسه؛ فهو الذي يقوم بتوجيهها وتأجيجها، وهي التي تزيده تأثيرا وفاعلية وتجعله يعبر الحدود والآفاق، وتحاول كبح جماحه والحد من تأثيره أحيانا أخرى.

إن الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي هما في النهاية يلتقيان في مكان واحد بتسميتين مختلفتين، ويحققان هدفا واحدا بكيفيتين مختلفتين، وكأنهما خطاب واحد؛ فالسياسة إعلام، والإعلام سياسة، والإرهاب سياسة وإعلام.

وهنا يدخل خطاب آخر على خط المواجهة بقوة هو: **الخطاب الديني** باعتباره الخطاب المرجع الذي يتم تصويره في سؤال الإرهاب على أنه العقل المدبر غالبا، وعلى أنه الضحية أحيانا أخرى؛ المهم أنه يتشابك مع

الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي لتزداد مساحة الخطابات اتساعا وتفاعلا في إرهابيس الرواية، وفي كاتبها أيضا فهو: الشاعر الذي له دواوين شعرية متعددة جيدة، والإعلامي المتمرس الخبير بأنواع الإعلام وخصوصياته، والرسام المشتغل بالصورة، والسياسي الذي له هدف ورؤيا، وهو الروائي البارع الذي له دراية ببلاغة الوصف وأسرار السرد وخبايا الحكي المتنوعة.

ولنقرأ هذا النص من الرواية:

"هذه ساحة أتلانتس...

نزل "مانكو" من سلم حجري، وتبعناه صامتين مشدوهين، كأننا قطيع أغنام، ولما بلغنا سطح المكان المفتوح قال لنا: "انظروا إلى هذه الإشهارات المضيئة وأقرؤوا ما فيها...

تشير اللافتة الأولى إلى اسم "الضاحية الحمراء، وبجانبها صورة لقبعة وسيجار. قال كوستا: إنها إشارة لتشي غيفارا.. فعالجه مانكوبرد سريع: الكوماندانتي.. وليس تشي غيفارا. ليس صديقًا لك يا سيدكوستا.

طبعا طبعا، ...

وحملت اللافتة الثانية اسم "الضاحية الخضراء" تعلوها صورة صومعة وسيف، فضحكت وقلت: بلا شك هذه اللافتة تشير إلى الحركات الإسلامية المسلحة؟".

وهل خشيت أن تقول أسامة بن لادن؟ قال مانكو.

وكتب على اللافتة الثالثة "الضاحية السوداء" ورمزها جمجمة ورصاصتان، لا أظن أنهما تعنيان الثورة والسياسة. قد تكون المافيا والمخدرات"[8]. فما يلاحظ عن هذا الحوار بين "مانكو" و"أمين الدراجي"

وهما من شخوص الرواية: أنه حوار يتأسس على علامات سيميائية متنوعة، تتعدى كونها دالا ومدلولا إلى كونها دوال ومدلولات ومراجع ضاربة في **عمق الثقافة** بما تحمله من معنى، وفي **عمق الإيديولوجيا** التي هي المغذي للخطابات المؤسسة للرواية والتي تجعلها تأخذ بعدها الأسطوري؛ "فعندما تتناول السياسة أحداث الماضي، فإنه يتبين فيها ما يراه أصلا أبديا مطلقا لتشكل جماعته، ولبدء تاريخها، وتكوّن حاضرها ومستقبلها. فمنه، ومنه وحده تكسب معناها ودلالاتها في الحال والمآل. وعندئذ تكون أمام ما يمكن تسميته بأسطورة الأصل المؤسس، التي لا يخلو منها خطاب إيديولوجي سياسي، يقول شتراوس: "لا شيء يشبه الفكر الأسطوري أكثر من الإيديولوجيا السياسية..."[10].

إن كلا من **الضاحية الحمراء** تمثل علامة سيميائية كبرى تتركب من علامات سيميائية صغرى هي: **صورة تشي غيفارا** "**الكوماندانتي،** وكذلك **القبعة والسيجارة،** وكلها ترمز إلى مرجعية محددة، والأمر نفسه بالنسبة **للضاحية الخضراء** في مقابل الحمراء، تمثل علامة سيميائية كبرى مركبة من علامات جزئية هي: **الصومعة والسيف،** مضافا إليهما ابن لادن أو الجماعات الإسلامية المسلحة كما هو شائع في الخطابات المختلفة.

وكذلك بالنسبة للافتة الثالثة التي حملت اسم **الضاحية السوداء** ورمزها **جمجمة ورصاصتان** التي قد تعني مافيا المخدرات.

لقد شاع تداول هذه الألوان: الخضراء والحمراء والسوداء في الخطابات السياسية والإعلامية والدينية والقانونية أيضا، وهي مشحونة شحناً إيديولوجيا واضحا.

والسؤال الذي يمكن طرحه دائما، ويطرح هنا أيضا هو: من الذي يمارس الإرهاب؟ إلى أية ضاحية من الضواحي المذكورة ينتمي؟ أ إلى الخضراء أم إلى الحمراء أم إلى السوداء؟ أم ينتمي إليهم جميعًا؟ هل تشي غيفارا الكوماندانتي إرهابي؟ وتتنزل الثورة التي قام بها في قاموس الإرهاب؟ هل يرمز السيف والصومعة إلى الإرهاب حقا؟ أم يرمزان إلى حضارة ظلت قوية فترة من الزمن؟ هل أسامة بن لادن قد مارس الإرهاب باختياره أم مدفوعا إليه دفعا؟ هل المافيا هي الإرهاب؟.

تبقى الأسئلة مطروحة ومفتوحة، تحتاج الإجابة عنها إلى الحفر العميق في التربة الحضارية والثقافية بما يحمل المصطلحان من مفاهيم تتعلق بالعادات والتقاليد والدين والتاريخ وأنشطة الإنسان المختلفة في حياته، من تراث مادي ومعنوي، ومن فكر ولغة وإيديولوجيا واختيارات وآفاق مستقبلية، وعلاقات متنوعة: اجتماعية وسياسية وثقافية، وتبادلات اقتصادية وغيرها.

وبكلمة أخرى: الإجابة عن الأسئلة المطروحة وغيرها تتأسس على **المعرفة** التي تمثل القاسم المشترك بين الحضارات جميعًا، ولكي يتم فهم سؤال الإرهاب لا بد من حضورها "فهي وسيلة لمعرفة الإنسان كممثل لمجتمع كامل، لقدراته وللتعرف على العالم من حوله، وهي أيضا وسيلته الأساس لكي يتعرف على الآخر"(11).

إن الذي يقرأ هذه الرواية وهي تعالج إشكالية الإرهاب وتحاول تفكيكها يستشف مسألة محورية فيها هي: **العلاقة بالآخر**، وهي مسألة صميم مطروحة على الحضارة العالمية المعاصرة وبخاصة بعد 11 سبتمبر 2001.

أعتقد أننا لا نعرف الآخر، وأنّ الآخر لا يعرفنا، وهو ما يفسر العلاقة بيننا وبينه، فهي أقرب إلى القطيعة منها إلى التواصل والتفاهم. إن

الضواحي الحمراء والخضراء والسوداء تلتقي كلها في إرهابستان. وإنّ لإرهابستان **برلمانا** ولا أحد "يجرؤ أن يفرض رأيه بالقوة. الموت هنا ممنوع"[12].**ولها دستور وعلم وعملة نقدية ونشيد وطني**، يعتمد إيقاع موسيقى "أفول الآلهة" للموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر... تقديرا لهتلر الذي كان معجبا به[13].

ولإرهابيس **بيان تأسيس** كما يظهر في أدبياتها وهذا نصه كما في الرواية: "شعورا منا بالحاجة إلى عالم بديل، ليس فيه مرتزقة باسم القيم، ولا سماسرة باسم الثورة، ولا أنبياء يدعون العصمة في عصر النفاق، ولا زعماء يصنعون المجد من جماجم شعوبهم، فإننا نحن الذين أعلنّا الحرب على عالم مزيف، وشعوب خنوعة، وساسة يمتهنون الكذب والنفاق، وعلى أفكار تقتل حق الإنسان في أن يرفض ويقول "لا"، وعلى إيديولوجيات خبيثة وماكرة، قررنا هجرة هذا العالم الموبوء، وبناء عالم مختلف أسميناه على بركة الله "إرهابيس" يلتقي فيه القاتل والديكتاتور الذي يرى القوة وسيلة للاستقرار، والمتاجر في السلاح والمخدرات لتحقيق أمنية الحق في الموت الرحيم، إنها ليست فلسفة طوباوية، لكنها حقيقة العالم الذي لا يعترف به الآخرون ليبارك الله إرهابيس"[14].

توقيع الآباء المؤسسون[15].

هذا هو البيان السياسي المؤسس لإرهابيس كدولة لها زوارها وروادها وساكنوها الذين لا يموتون، وكما نرى فهو بيان **موصوغ صياغة لغوية قانونية سياسية** تحدد المنتمين لإرهابيس، شعورا منهم بعالم بديل، وإعلانا للحرب على عالم مزيف. إنه بيان شديد اللهجة وبشروط قاسية، وقد وقعه آباء مؤسسون متميزون، كل واحد منهم يرمز إلى رموز خاصة به

وبمرجعيته وثقافته ونشاطه وما فعل، وكلهم يجتمعون في إرهابيس وفق شروط بيانهم التأسيسي.

بل وأكثر من ذلك **فإن لإرهابيس دستورا** ينظم إدارة حكمها ويحدد نظامها السياسي من الناحية القانونية. جاء في ديباجة هذا الدستور العجيب كما وصفه الروائي "إرهابيس ليست دولة ولا مملكة ولا إمارة ولا امبراطورية. هي عائلة تجمع بين منظمات وحركات شعارها "القوة أبدًا "[16].

تعني **العائلة** هنا نظاما –في نظرهم– أكثر احتراما وأكثر تنظيما وأكثر مصداقية من الأنظمة الأخرى المزيفة، إن شعار هذه العائلة هو تغيير العالم بالقوة[17]مهما كانت هذه القوة، المهم هو تحقيق الهدف.

يشمل **دستور** إرهابستان اثنتي عشرة مادة قانونية عجيبة وغريبة فعلا لمن يقرأ الرواية.

فعائلة إرهابيس هي العالم الحقيقي بتعدد الأعراق وتنوع الثقافات وعمق تجارب الحركات التي التحقت بها وكوّنتها عن قناعة وطواعية وتدار شؤون العائلة بالتناوب بين الحركات المكوّنة لها في حكومة التضامن الرئاسي، وشعبها هو جيشها، ولا يوجد بها مليشيات أو بوليس سري.

وتنظم مؤتمرها كل تسعة أشهر، ولا تقيم أية علاقات مع أي جهة أجنبية، وغير ذلك من المواد الدستورية[18].

بهذه المواد تكون إرهابيس عائلة مثلى قوية والقوة هي التي تغير العالم.

إن العائلات التي تسكن إرهابيس هي:

"القاعدة وروافدها، الحركات الثورية، تحالف الإسكو–كابون (إسكوبار وألكابون)، مشاهير القتلة، تكتل الدكتاتورية"[19].

فهي كما نرى ساكنة عجيبة وعائلة قوية غريبة، تنعم بالديمقراطية بينها وبين بعض؛ فهي لا تعيش الفوضى، وإنما تعيش حسب بيانها التأسيسي، وما يحمله من مبادئ وفلسفة، وحسب دستورها الذي ينظم حياتها وإدارة شؤونها، وعلاقاتها الداخلية، ومع العالم الخارجي، ويتأسس كل ذلك على "**سيكويا الحكمة**" التي تعني "أطول أشجار الدنيا عمرا، يقولون إنها ولدت قبل الأهرامات بسبعة آلاف سنة، وكذلك هم كبار إرهابيس الحكماء لا يختلفون عنها، فاتفقوا أن تكون هيئة الحكم تحمل اسم سيكويا الحكمة"[20].

إنهم يحملون تفاؤلا بهذا النوع من الأشجار، لكي يعمّروا طويلا مثله، لكي يخلدوا في الأرض، وربما لذلك يقتلون الآخرين لكي يعيشوا وحدهم.

أمثلة كثيرة تتبادر إلى ذهني وتتزاحم في مخيلتي منها هذا السؤال: لماذا يتم التركيز على القاعدة أكثر من الحركات الأخرى في الحديث عن الإرهاب؟ هل تعد القاعدة أكثر نشاطا في ممارسة الإرهاب مقارنة بالحركات الأخرى؟ أم أنّ في الأمر أسرارا وخفايا غير معروفة؟.

ولإرهابستان **إعلامها الخاص**، فلها قناة تلفزيونية داخلية تختلف في نظرها "عن فضائيات التضليل والكذب"[21]. تسمى: "قناة العائلة وشعارها: الحق في أ لا تقول الحقيقة"[22]، ولها صحيفة يومية اسمها: "الفلاذ"[23] لا يدير هاتين الوسيلتين الإعلاميتين "العراقي سعيد الصحاف، ولكنه الألماني جوزيف غولبز"[24].

إنهم في إرهابيستان يريدون "أن يتخلص الإنسان من عالم يعتقد أن خلاصه في السلم، ولكنه بحاجة إلى أن يكون قويا ليصل إلى السلم، ولا يعتبرون العنف إثما والإرهاب جريمة، وإبادة البشر إيذانا بالقيامة"[25]. فهي من هذه النواحي جميعا، دولة ينعم فيها الثوار والقتلة والدكتاتوريون وزعماء

المافيا وتجار السلاح والكوكايين بالديمقراطية، وأية ديمقراطية؟ كل واحد منهم "يعيش لتاريخه"[26] ويحترم **العائلة/الدولة** وإلا سيطبق عليه القانون، من ذلك ما حدث لـــ "كوستا" الذي قدّم اعتذاراته للعائلة فورًا؛ لأنه وصف إرهابيستان بأنها "مكان ملعون"[27] ووصف حركاتها "بمجتمع ما قبل الحداثة"[28].

إن المهم في كل هذا سيادة إرهابستان فلا شيء يعلو عليها.

ولإرهابستان **نظامها التعليمي** الذي يخصها "بحسب اتفاق العائلة الصغيرة والكبيرة؛ أي أن المناهج تكون مشتركة في الطور الأول، وتتنوع في الأطوار الإعدادية والثانوية؛ إذ تختار كل عائلة ما يناسبها ويناسب ابنها، والتجربة مازالت في بدايتها. ولا وجود لعالمكم المتخلف"[29].

تحاول الرواية أن تؤرخ للإرهاب أو على وجه التدقيق تشير إلى بعض من تاريخه، "فتشير إلى أكثر من مائتي عملية إرهابية وانتحارية بدءا من اغتيال ولي عهد النمسا وزوجته يوم 28 يونيو 1914 بسراييفو، مرورا بعشرات العمليات التي تخللت الحرب العالمية الثانية، وبدا واضحا أن قلب العالم هم العرب المسلمون الذين نالوا حصة الأسد؛ من ذلك ما يفوق 80 بالمئة منها منذ نشوء إسرائيل، وفي منحنى تصاعدي منذ السبعينات إلى غاية تأسيس إرهابيس"[30].

ما معنى هذا؟ متى بدأ الإرهاب؟ هل بدأ مع الحرب العالمية وتطور مع إسرائيل التي تعد نشأتها إرهابية؟ هل إسرائيل هي سبب الإرهاب في العالم؟ ولكنّها ليست وحدها.

إنّ للإستعمار تاريخا في إفريقيا وفي العالم العربي، وأن بداية الإرهاب بشواهد التاريخ الكثيرة قد بدأت مع الإستعمار وما فعله في الشعوب

ومنها نحن. لتكون إسرائيل حلقة من حلقاته، حلقة في مسلسله الطويل المليئ بالدماء والترعيب والترهيب وصناعة الخوف، وإشاعة ثقافة الكراهية والضغائن والأحقاد.

وقد كنا نحن العرب والمسلمين والأفارقة الضعفاء وقوده وضحاياه، ومن غرائب الأيام أن نوصف بالإرهاب ونحن ضحاياه، ويوصف ديننا بالإرهاب وهو دين التسامح والعدل والسلام والحرية.

إن مقاومتنا للاستعمار ودفاعنا عن أنفسنا وممتلكاتنا ليس إرهابًا؛ إنه رد فعل ضد ما فعل بنا ويُفعلُ فينا.

يخصص الروائي الصفحات 42 و43 و44 و45 و46 لذكر الشواهد التاريخية الكثيرة عن الجرائم المرتكبة في العالم موثقا إياها وبتواريخها وعدد قتلاها.

وإذ أحيل القارئ الكريم إلى قراءة هذه الصفحات، بل قراءة الرواية وهي جديرة بالقراءة، فإنني أستسمحه بأن أقدم هذا المثال الذي يوضح كرونولوجيا المذابح في فلسطين التي قامت بها العصابات الصهيونية منذ 1947، فالكاتب قد وثقها لأهميتها وأعيد توثيقها في هذا المقام لأهميتها أيضا من الناحية السياسية والتاريخية والإعلامية والدينية.

- مذبحة بلدة الشيخ (600 شهيدا التي قامت بها عصابة الهاغانا.
- مذبحة دير ياسين (360 شهيدا) قامت بها عصابات شتيرن وأرغون.
- مذبحة قرية أبو شوشة (50 شهيدا) قامت بها ألوية جفعاتي.
- مذبحة اللّد (426 شهيدا) كومندوس بقيادة موشي ديان.

- مذبحة قرية قلقيلية (70 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي.
- مذبحة كفر قاسم (49 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي.
- مذبحة خان يونس على مراحل (725 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي.
- مذبحة صبرا وشاتيلا (3500 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي مع الكتائب اللبنانية تحت شعار "بدون عطف" الله يرحمه.
- مذبحة المسجد الأقصى (21 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي.
- مذبحة الحرم الإبراهيمي (50 شهيدا) بسبب غولدشتاين.
- مذبحة قانا بجنوب لبنان (160 شهيدا) قام بها الطيران الإسرائيلي
- مذبحة النفق (70 شهيدا) دفاعا عن المسجد الأقصى.
- مذبحة جنين (58 شهيدا) قام بها الجيش الإسرائيلي"[31].

ونضيف إليها غزة الأولى والثانية وغيرهما، إنما ذكر هو غيض من فيض.

إنها مذابح ومذابح ودماء ودماء... السبب فيها إسرائيل وأعوانها والذين أنشأوها وأعانوها وما زالوا يدعمونها، وكل هذا ولم توصف إسرائيل بالإرهاب، ويصير الدفاع عن النفس والمقاومة إرهابا، أي منطق مقلوب هذا؟.

فليسمح لنا الكاتب أن نستعير منه عبارته: "**لم تر شيئًا يا صديقي**" التي كثيرا ما تتكرر في الرواية عند مقاماتها اللازمة المتصفة غالبا،

بالغرابة، من ذلك أن إرهابستان كيان هجين يتقاطع في الدم، حتى إن القاتل والضحية يلتقيان فيها، ويتناولان القهوة والشاي معًا، كما هو الشأن بين تشي غيفارا وماريوتيران الذي قتله[32].

أي متخيل روائي هذا؟ إنه عجيب فعلا، وغريب أن يحدث هذا؟ أية معادلة هذه التي يلتقي فيها الخطان المتوازيان؟ إن ذلك يحدث في إرهابيس أرض الإثم والغفران "القتيل يجلس مع قاتله ويبادله النكتة، ويستعيد معه ذكريات مؤلمة بكثير من الإعجاب، فليس للندم مكان في إرهابيس..."[33].

لكأني بهذه العجائب والغرائب تذكرنا بمتخيل أبي العلاء المعري في رسالة الغفران، ولكن من زاوية مختلفة.

وجدير بالإشارة – في حدود ما أعلم– إلى أنه توجد أعمال روائية جزائرية عديدة تناولت الإرهاب وقد تميزت بعدة مميزات منها:

- تميزها بطابع ذاتي ذي رؤيا ضيقة محدودة، صور بعض كتابها أنفسهم ضحايا للإرهاب مطاردين منه، أو مناوئين له مقاومين إياه إلى درجة البطولة، وكانت خلف ذلك إما تصفية حسابات ليس مع الإرهاب فحسب ولكن مع الوطن أيضا، لأنهم رأوا اللحظة مناسبة في رأيهم، وإما الرغبة في الابتزاز والاستفادة الشخصية من بعض الامتيازات.
- كما تميزت معالجة بعضهم للموضوع بأسلوب قريب جدّا من المراسلة الصحفية.

ولكن ما يميز رواية: "إرهابيس" هو **:طرحها لإشكالية الإرهاب على بساط البحث ومعالجتها باعتبارها أطروحة حضارية ثقافية**، لها أبعاد

اجتماعية وأنثروبولوجية ونفسية متعددة، يقف فيها أمين الدراجي شاهد حال، وراويا ساردا لكل ملابساتها وأوصافها، وباحثا في مرجعياتها على اختلافها، سواء أكانت مرجعيات عامة أم جزئية خاصة بشخصية محددة من شخصيات الرواية.

خلافا للمعالجات الروائية الأخرى لظاهرة الإرهاب وما خلقته؛ فقد ركزت عليه داخل الرقعة؛ داخل الجزائر ولم تتجاوزه إلى خارجها إلا قليلا نادرا وذلك لأن الإرهاب في بدايته ضرب الجزائر وحدها؛ حيث عانت عشرية دموية وحيدة، وقد كان الخارج يمثل القواعد الخلفية التي تمول الإرهاب وتحميه؛ بل **وأكثر من ذلك عزّ الجزائر في الخطاب.**

لقد تميزت هذه الرواية بكثير من المقارنات بين الأحداث الدموية التي حدثت في التاريخ، وقدمت كثيرا من الشواهد التاريخية والأدلة القانونية والحجج المختلفة، وقلبتها على وجوهٍ مختلفة، طارحة السؤال بشأنها هل تدخل ضمن الإرهاب وتصنف منه أم لا؟ وبخاصة إذا علمنا أنّ لكل حادثة دوافع عند أصحابها.

أعتقد أن سناء محيدلي المناضلة الفلسطينية التي فجرت نفسها يوم 9 أفريل 1985 في تجمع لآليات الجيش الإسرائيلي تحمل مرجعية، تختلف عن المرجعية التي تميز الأم ماتيلدا المعلمة المكسيكية التي التحق ابنها خيسوس في 1999 بكارتل لويس زيتاس أقوى عصابات المخدرات، وحدث أن كان ضحية من ضحاياه، فرأت أمه ماتيلدا أن تأخذ بثأره بتنفيذ عمليات عديدة وقتل أشخاص كثيرين[34].

إن سناء محيدلي وماتيلدا قد التقتا في "إرهابيس" بمرجعيتين مختلفتين، وبهدفين مختلفين، شتان بين الوطن المحتل وبين من ينتمي إلى

عصابات المافيا والمخدرات، وبين من يدافع عن وطن وبين من يأخذ ثأرا شخصيا. فهل سناء قد مارست الإرهاب؟ وعلى من؟ أم هي إحدى ضحاياه؟. تبقى الإشكالية مطروحة ومفتوحة.

الهوامش:

1- د/ الطيب بودربالة: قراءة في كتاب:- سيمياء العنوان للدكتور بسام قطوس- أعمال الملتقى الثاني السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 15-15 أفريل 2002، ص 23.

2- المرجع نفسه، ص 25.

3- المرجع نفسه، ص 29.

4- ريمون وليامز – الكلمات المفاتيح- ترجمة نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، سنة 2007، انظر: مفاهيم- ثقافة- أنثروبولوجيا- حضارة.

5- انظر: رواية إرهابيس، ص 6.

6- الرواية، ص 7.

7- الرواية، ص 10.

8- الرواية، ص 15.

9- الرواية، ص 15.

10- د/ عبد السلام حيمر – في سوسيولوجيا الخطاب، من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل، الشبكة العربية للأبحاث، ط (1)، 2008، ص 46-47.

11- محمد عبد الجادر، التعددية والمعرفة، حديث الشهر، مجلة العربي، عدد 660، نوفمبر 2013، ص 9.

12- الرواية، ص 15.

13- الرواية، ص 16.

14- الرواية، ص 20.

15- الرواية، ص 2021، وهم إرنستوتشي غيفارا، الشيخ أسامة بن لادن، السيدة أولريكي ما ينهوف، السيد أوم شيريكو آل كابون، السيد بابلواسكوبار، كارلوس، بوكاسا، كيم جونغ إيل وبتزكية من موسوليني، وستالين، وبول بوت، وبينوشية، وعيدي أمين وصدام حسين والقذافي وتشاوسيسكو واعتذار هلتر لوعكة صحية

16- الرواية، ص 21.

17- الرواية، ص 21.

18- الرواية، ص 22–23.

19- الرواية، ص 22.

20- الرواية، ص 27.

21- الرواية، ص 30.

22- الرواية، ص 30.

23- الرواية، ص ص30.

24- الرواية، ص 30.

25- الرواية، ص 32.

26- الرواية، ص 31.

27- الرواية، ص 35.

28- الرواية، ص35

29- الرواية، ص 38–39.

30- الرواية، ص 42.

31- الرواية، ص 45–46.

32- الرواية، ص 46.

33- الرواية، ص 46.

34- الرواية، ص 48.